أولاً ـ من قصص الإمام أبي حنيفة

القول ما قال أبو حنيفة

قال أبو حنيفة: استفتت أمي عن شيء فأفتيتها فلم تقبله، وقالت: لا أقبل إلا بقول أبي زُرعة القاص ـ الواعظ ـ فجاء بها إليه، وقال له: إن أمي تستفتيك في كذا، فقال: أنت أعلم وأفقه، فأفتها، قال: أفتيتها بكذا، فقال أبو زرعة: القول ما قال أبو حنيفة، فرضيت وانصرفت[1]!

إن أمي أمرتني أن أسألك عنها

قال أبو حنيفة: ربما ذهبت إلى مجلس عمر بن ذر وأسأله مسألة، فآتيه وأذكرها له وأقول له: إن أمي أمرتني أن أسألك عنها، فيقول: وأنت تسألني عن هذا؟ فأقول: هي أمرتني، فيقول: قل لي كيف هو ـ يعني الجواب ـ حتى أخبرك؟ فأخبره بالجواب، ثم يخبرني به فآتيها وأخبرها عنه بما قال!

وما عليَّ شيء أشد من غم أمي

قال يحيى بن عبد الحميد: كان الإمام يخرج كل يوم من السجن فيُضرب ليدخل القضاء، فيأبى، فلما ضُرب رأسه وأثَّر ذلك في وجهه بكى فقيل له في ذلك فقال: إذا رأته أمي بكت واغتمت وما عليَّ شيء أشد من غم أمي!

---

(١) محمد سليمان «أخلاق العلماء» (ص: ٧٩).

أبكي غمًّا على والدتي

قال يحيى الحماني: كان أبو حنيفة يضرب على أن يلي القضاء فيأبى، ولقد سمعته يبكي وقال: أبكي غمّاً على والدتي[١].

بر الإمام أبي حنيفة بوالديه

كان الإمام أبو حنيفة بارًا بوالديه، وكان يدعو لهما ويستغفر لهما مع شيخه حماد، وكان يتصدق كل شهر بعشرين دينارًا عن والديه[٢].

كان يحمل والدته على حماره

قال أبو يوسف: كان أبو حنيفة يحمل والدته على حماره إلى مجلس عمر ابن ذر، كراهة أن يرد قولها.

فدعا له بالبركة

قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة بن النعمان بن ثابت بن المرزبان من أبناء فارس الأحرار: والله ما وقع علينا رق قط، ولد جدي سنة ثمانين وذهب ثابت إلى علي وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، ونحن نرجو من الله أن يكون استجاب ذلك لعلي رضي الله عنه فينا.

---

(١) الذهبي «مناقب الإمام أبي حنيفة» (ص: ١٥-١٦).

(٢) وهبي الألباني «أبو حنيفة النعمان» (ص: ١٠٢).

مهرجونا كل يوم

قال مكرم بن أحمد: النعمان بن المرزبان والد ثابت هو الذي أهدى لعلي الفالوذج يوم النيروز فقال علي: نوروزونا كل يوم، وقيل: ذلك كان في المهرجان، فقال: مهرجونا كل يوم.

هو عندنا من أهل الصدق

قال يحيى بن معين: كان أبو حنيفة لا بأس به، وقال مرة: هو عندنا من أهل الصدق، ولم يتهم بالكذب، ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضيًا[1].

... الذين لم يعملوا الذنوب

قال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها فقيل: تعلم القرآن، فقلت: إذا حفظته فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس في المسجد فيقرأ عليك الصبيان والأحداث ثم لا يلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو مساويك فتذهب رئاستك.

قلت: من طلب العلم للرئاسة يتفكر في ذلك، وإلا فقد ثبت قول المصطفى ﷺ: «**أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه**»[2] يا سبحان الله، وهل محل أفضل من

---

(١) «السير» (جـ٦، ص: ٣٩٣-٣٩٤).

(٢) البخاري، وهو مروي بلفظ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» رواه البخاري عن عثمان رضي الله عنه.

المسجد؟ وهل نشر لعلم يُقارب تعليم القرآن؟ كلا والله، وهل طلبة خير من الصبيان الذين لم يعملوا الذنوب؟!

قلت: فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني؟ قالوا: إذا كبرت وضعفت، حدثت واجتمع عليك هؤلاء الأحداث والصبيان، لم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب فيصير عارًا عليك في عقبك فقلت: لا حاجة لي في هذا.

قلت: أتعلم النحو، فقلت: إذا حفظت النحو والعربية ما يكون آخر أمري؟ قالوا: تقعد معلمًا فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة، قلت: وهذا لا عافيه له، قلت: فإن نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر مني؟ قالوا: تمدح هذا فيهب لك أو يخلع عليك وإن حرمك هجوته، قلت: لا حاجة فيه، قلت: فإن نظرت في الكلام ما يكون آخر أمره؟ قالوا: لا يسلم من نظر في الكلام من مشفعات الكلام فيرمى بالزندقة فيقتل أو يسلم مذمومًا.

قلت: قاتل الله من وضع هذه الخرافة وهل كان في ذلك الوقت وجد علم الكلام! قال: قلت: فإن تعلمت الفقه؟ قالوا: تسأل وتفتي الناس وتطلب للقضاء وإن كنت شابًا، قلت: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا فلزمت الفقه وتعلمته.

لا حاجة لي في الكلام

قال أبو حنيفة: كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغًا يشار إليَّ فيه بالأصابع، وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سلمة، فجاءتني امرأة يومًا فقالت لي: رجل له امرأة أمة أراد أن يطلقها للسنة كم يطلقها؟ فلم أدر ما

أقول: فسألتها أن تسأل حماداً ثم ترجع تخبرني، فسألته فقال: يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة ثم يتركها حتى تحيض حيضتان، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج، فرجعت فأخبرتني فقلت: لا حاجة لي في الكلام، وأخذت نعلي فجلست إلى حماد فكنت أسأل مسائله فأحفظ قوله ثم يعيدها إلى الغد فأحفظها ويخطئ أصحابه فقال: لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة، فصحبته عشر سنين، ثم نازعتني نفسي الطلب للرئاسة فأحببت أن أعتزله وأجلس في حلقة لنفسي، فخرجت يومًا بالعشي وعزمي أن أفعل، فلما رأيته لم تطب نفسي أن أعتزله فجاءه تلك الليلة نعي قرابة له قد مات بالبصرة وترك مالاً وليس له وارث غيره فأمرني أن أجلس مكانه فما هو إلا أن خرج حتى وردت عليَّ مسائل لم أسمعها منه، فكنت أجيب وأكتب جوابي فغاب شهرين ثم قدم، فعرضت عليه المسائل وكانوا نحوًا من ستين مسألة، فوافقني في أربعين وخالفني في عشرين، فآليت على نفسي ألا أفارقه حتى أموت.

لم يكن عندي فيها جواب

قال أبو حنيفة: قدمت البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء إلا أجبت فيه، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب فجعلت على نفسي ألا أفارق حمادًا حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة.

كأني أنبش قبر النبي ﷺ

قال أبو حنيفة: رأيت رؤيا أفزعتني، رأيت كأني أنبش قبر النبي ﷺ فأتيت البصرة فأمرت رجلاً يسأل محمد بن سيرين فسأله فقال: هذا رجل ينبش أخبار رسول الله ﷺ.

ابن المبارك وأبو حنيفة

قال عبد الله بن المبارك: لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس.

أبو حنيفة ومالك

قال الشافعي: قيل لمالك: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته.

لا ينام الليل

قال القاضي أبو يوسف: بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال أبو حنيفة: والله لا يتحدث عني بما لا أفعل، فكان يحيي الليل صلاة وتضرعًا ودعاء[1].

خجلتني بكسائك

وعن النضر بن محمد قال: كان أبو حنيفة جميل الوجه سري الثوب عطر الريح، أتيته في حاجة وعليَّ كساء قرمس، فأمر بإسراج بغلة وقال: أعطني كساءك وخذ كسائي، ففعلت فلما رجع قال: يا نضر خجلتني بكسائك هو غليظ قال: وكنت أخذته بخمسة دنانير، ثم إني رأيته وعليه كساء قوَّمته ثلاثين دينارًا.

---

(١) «السيرة» (جـ٦، ص: ٣٩٧-٣٩٩).

إن حلف بالله صادقًا

قال المثنى بن رجاء: جعل أبو حنيفة على نفسه إن حلف بالله صادقًا أن يتصدق بدينار، وكان إذا انفق على عياله نفقة تصدق بمثلها.

إن كنتم تنتفعون بهذا

قال الخريبي: كنا عند أبي حنيفة فقال رجل: إني وضعت كتابًا على خطك إلى فلان فوهب لي أربعة آلاف درهم، فقال أبو حنيفة: إن كنتم تنتفعون بهذا فافعلوه.

جزاك الله خيرًا

قال يزيد بن كميت: سمعت رجلاً يقول لأبي حنيفة: اتق الله، فانتفض واصفرَّ وأطرق وقال: جزاك الله خيرًا، ما أحوج الناس كل وقت إلى من يقول لهم مثل هذا، ويروى أن أبا حنيفة ختم القرآن سبعة آلاف مرة.

يبكي ويتضرع

قال القاسم بن معن: أن أبا حنيفة قام ليلة يردد قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (القمر: ٤٦)، ويبكي ويتضرع إلى الفجر.

فهو معزول

وعن الحسن بن زياد اللؤلؤي: قال أبو حنيفة: إذا ارتشى القاضي فهو معزول وإن لم يُعْزَل[1].

فعلى الرأس والعين

روى نوح الجامع عن أبي حنيفة أنه قال: ما جاء عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة اخترنا، وما كان غير ذلك فهم رجال ونحن رجال.

ترى أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف؟

قال إسحاق بن إبراهيم الزهري: طلب الخليفة المنصور أبا حنيفة فأراده على القضاء وحلف لَيَلِيَنَّ فأبى، وحلف: إني لا أفعل، فقال الربيع الحاجب: ترى أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف؟ قال: أمير المؤمنين على كفارة يمينه أقدر مني فأمر به إلى السجن.

فبادر إلى الواجب

ولما رفض أبو حنيفة أن يلي القضاء دفعه أبو جعفر المنصور إلى صاحب شرطته حميد الطوسي، فقال: يا شيخ إن أمير المؤمنين يدفع إليَّ الرجل فيقول

(١) «السير» (جـ٦، ص: ٤٠٠-٤٠١).

لي: اقتله أو اقطعه أو اضربه ـ ولا أعلم بقصته ـ فماذا أفعل؟ فقال: هل يأمرك أمير المؤمنين بأمر قد وجب؟ أو بأمر لم يجب؟ قال: بل قد وجب قال: فبادر إلى الواجب.

أترغب عما نحن فيه؟

وعن مغيث بن بديل قال: دعا المنصور أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع فقال: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: لا أصلح، قال: كذبت، قال: فقد حكم عليٌّ أمير المؤمنين أني لا أصلح، فإن كنت كاذبًا فلا أصلح وإن كنت صادقًا فقد أخبرتكم أني لا أصلح.

بل تصلح

قال الربيع الحاجب، وفيها قال أبو حنيفة: والله ما أنا بمأمون الرضا فكيف مأمون الغضب؟ فلا أصلح لذلك، قال المنصور: كذبت، بل تصلح فقال: كيف يحل أن تولي من يكذب[1].

من شابه أباه

قال الذهبي: وابنه الفقيه حماد بن أبي حنيفة كان ذا علم ودين وصلاح وورع تام، لما توفي والده كان عنده ودائع كثيرة وأهلها غائبون فنقلها حماد إلى الحاكم ليتسلمها فقال: بل دعها عندك فإنك أهل فقال: زنها واقبضها حتى تبرأ

(١) «السير» (جـ٦، ص: ٤٠١-٤٠٢).

منها ذمة الوالد ثم افعل ما ترى، ففعل القاضي ذلك وبقى في وزنها وحسابها أيامًا واستتر حماد فما ظهر حتى أودعها القاضي عند أمين.

اتق الله ولا ترعي أمانتك إلا من يخاف الله

وقال الربيع: رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول: اتق الله ولا ترعي أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك، ثم تهددتني، أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له: كذبت أنت تصلح، فقال له: قد حكمت لي على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيًا على أمانتك وهو كذاب؟!

أو تفعل؟!

وحكى الخطيب أيضًا في بعض الروايات: أن المنصور لما بنى مدينته ونزلها ونزل المهدي في الجانب الشرقي وبنى مسجد الرصافة، أرسل إلى أبي حنيفة فجيء به، فعرض عليه قضاء الرصافة فأبى، فقال له: إن لم تفعل ضربتك بالسياط، قال: أو تفعل؟! قال: نعم، فقعد في القضاء يومين فلم يأته أحد فلما كان في اليوم الثالث أتاه رجل صفَّار ـ نحاس ـ ومعه آخر، فقال الصفار: لي على هذا درهمان وأربعة دوانيق ثمن وعاء نحاس، فقال أبو حنيفة: اتق الله وانظر فيما يقول الصفار، قال: ليس له عليَّ شيء، فقال أبو حنيفة للصفار: ما تقول؟ فقال: استحلفه لي، فقال أبو حنيفة للرجل: قل والله الذي لا إله إلا هو، فجعل يقول: فلما رآه أبو حنيفة معتمدًا على أن يقول قطع عليه وضرب

بيده إلى كمه، فحل صرة وأخرج درهمين ثقيلين وقال للصفار: هذان الدرهمان عوض عن باقي وعائك فنظر الصفار إليهما وقال: نعم، فأخذ الدرهمين، فلما كان بعد يومين اشتكى أبو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات[١].

قصة الإمام أبي حنيفة مع يزيد بن عمر

وكان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين أراده أن يلي القضاء بالكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، فأبى عليه، فضربه مائة سوط وعشرة أسواط، كل يوم عشرة أسواط وهو على الامتناع، فلما رأى ذلك خلى سبيله، وكان أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ إذا ذكر ذلك بكى وترحم على أبي حنيفة، وذلك بعد ضرب أحمد على القول بخلق القرآن.

فلم يفعل

قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: مررت مع أبي بالكناسة فبكى فقلت له: يا أبت ما يبكيك؟ فقال: يا بني، في هذا الموضع ضرب ابن أبي هبيرة أبي عشرة أيام، في كل يوم عشرة أسواط على أن يلي القضاء فلم يفعل!

يا أبا حنيفة علمني

قال الفضل بن غانم: كان أبو يوسف مريضًا شديد المرض فعاده أبو حنيفة مرارًا فصار إلى آخر مرة فرآه ثقيلاً فاسترجع ثم قال: لقد كنت أؤملك بعدي

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٥، ص: ٤٠٦-٤٠٧).

للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير، ثم رزق العافية وخرج من الغد، فأُخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة فيه فارتفعت نفسه وانصرفت وجوه الناس إليه فعقد لنفسه مجلسًا في الفقه، وقصر عن لزوم مجلس أبي حنيفة فسأل عنه فأخبر أنه عقد لنفسه مجلسًا وأنه يلقي كلامك فيه فدعا رجلاً كان له عنده قدر فقال: سر إلى مجلس أبي يوسف فقل له: ما تقول في رجل دفع إلى قصَّار ثوبًا ليقصره بدرهم فصار إليه بعد أيام في طلب الثوب فقال له القصار: ما لك عندي شيء وأنكره، ثم إن رَبَّ الثوب رجع إليه فدفع إليه الثوب مقصورًا، أله أجرة؟ فإن قال لك: له أجرة، فقل له: أخطأت، وإن قال: لا أجرة له، فقل له: أخطأت، فسار إليه وسأله فقال أبو يوسف: له أجرة، فقال: أخطأت، فنظر ساعة ثم قال: لا أجرة له، فقال له: أخطأت، فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة فقال: ما جاء بك إلا مسألة القصار، قال: أجل، قال: سبحان الله، من قعد يفتي الناس وعقد مجلسًا يتكلم في دين الله وهذا قدره، لا يحسن أن يجيب في مسألة من الإجارات؟ فقال: يا أبا حنيفة علمني، فقال: إن كان قصره بعدما غصبه فلا أجرة لأنه قصر لصاحبه ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعليم فليبك على نفسه[1].

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٥، ص:٨ - ٤).

فهو عيال على أبي حنيفة

قال الشافعي: الناس عيال على هؤلاء الخمسة، من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه، ومن أراد أن يتبحر في الشعر فهو عيال على زهير بن أبي سلمى، ومن أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي، ومن أراد أن يتبحر في التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان.

تفتح وسال كالوادي

قال يحيى بن معين: القراءة عندي قراءة حمزة، والفقه فقه أبي حنيفة على هذا أدركت الناس، وقال جعفر بن ربيع: أقمت على أبي حنيفة خمس سنين، فما رأيت أطول صمتًا منه، فإذا سُئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي، وسمعت له دويًا وجهارةً في الكلام.

قصة الإمام أبي حنيفة مع الحجام

قال علي بن عاصم: دخلت على أبي حنيفة وعنده حجام يأخذ من شعره، فقال للحجام: تتبع مواضع البياض، فقال الحجام: لا تزد، فقال: ولِمَ؟ قال: لأنه يكثر، قال: فتتبع مواضع السواد لعله يكثر، وحكيت لشريك هذه الحكاية فضحك وقال: لو ترك أبو حنيفة قياسه لتركه مع الحجام[1].

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٥، ص:٤٠٩).

قصة الإمام أبي حنيفة مع الإسكافي

قال عبد الله بن رجاء: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف، يعمل نهاره أجمع حتى إذا جنَّه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحمًا فطبخه أو سمكة فيشويها ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب الشراب فيه غرد بصوت وهو يقول:

اضاعوني واي فتى اضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر**

فلا يزال يشرب ويردد هذا البت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جَلَبته كل ليلة، وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه، فقيل: أخذته الشرطة منذ ليالٍ وهو محبوس، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد، وركب بغلته، واستأذن على الأمير، فقال الأمير: إيذنوا له واقبلوا به راكبًا ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته ففعل، ولم يزل الأمير يوسع له في مجلسه وقال: ما حاجتك؟ فقال: لي جار إسكاف أخذته الشرطة منذ ليالٍ، يأمر الأمير بتخليته؟ فقال: نعم، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه وقال: يا فتى أضعناك؟ فقال: لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه.

عليكم بالشكر

قال ابن المبارك: رأيت أبا حنيفة في طريق مكة وشُوي لهم فصيل سمين فاشتهوا أن يأكلوه بخلٍّ فلم يجدوا شيئًا يصبون فيه الخل فتحيروا فرأيت أبا حنيفة وقد حفر في الرمل حفرة وبسط عليها السفرة وسكب الخل على ذلك

الموضع، فأكلوا الشواء بالخل، فقالوا: تحسن كل شيء، فقال: عليكم بالشكر، فإن هذا شيء ألهمته لكم فضلاً من الله عليكم[١].

قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي

وحكى الحسن بن زياد قال: دفن رجل مالاً في موضع، ثم نسي في أي موضع دفنه فلم يقع عليه، فجاء إلى أبي حنيفة فشكا إليه فقال له أبو حنيفة: ما هذا في الفقه فأحتال لك ولكن اذهب فصلِّ الليلة، فغفل الرجل ولم يقم إلا أقل من ربع الليل حتى تذكر الموضع، فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره، فقال له: قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي حتى يذكِّرك، فهلا أتممت ليلتك شكراً لله - عزَّ وجلَّ -.

فهل من حيلة؟

قال ابن شبرمة: كنت شديد الإزراء على أبي حنيفة فحضر الموسم وكنت حاجًا يومئذ، فاجتمع إليه قوم يسألونه، فوقفت من حيث لا يعلم من أنا، فجاءه رجل فقال: يا أبا حنيفة: قصدتك، أسألك عن أمر أهمني وأزعجني قال: وما هو؟ قال: لي ولد وليس لي غيره، فإن زوَّجته طلق، وإن سرَّيته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ قال له: نعم، اشتر الجارية التي يرضاها لنفسه ثم زوجها منه، فإن طلق رجعت إليك مملوكتك، وإن أعتق أعتق ما لا يملك وإن ولدت ثبت نسبه لك، فعلمت أن الرجل فقيه من يومئذ وكففت عن ذكره إلا بخير.

---

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٥، ص: ٤١٠).

ما سمعته يغتاب عدوًا قط!

وقال ابن المبارك: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدوًا قط! فقال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها.

حتى يرحمه جيرانه

قال أسد بن عمرو: صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة، وكان عامة ليله يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة وكان يُسمع بكاؤه في الليل حتى يرحمه جيرانه، وحفظ عنه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة[1].

يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة

قال أبو يوسف: دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة، فقال الربيع صاحب المنصور ـ وكان يعادي أبا حنيفة ـ: يا أمير المؤمنين، هذا أبو حنيفة يعادي جدك، كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء، وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين، فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة، قال: وكيف؟ قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم، فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة، فلما

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٥، ص: ٤١٢-٤١٣).

خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تطيح بدمي، قال: لا، ولكنك أردت أن تطيح بدمي فخلصتك وخلصت نفسي.

أراد أن يوثقني فربطته

وكان أبو العباس الطوسي سيئ الرأي في أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك، فدخل أبو حنيفة على المنصور وكثر الناس فقال الطوسي: اليوم أقتل أبا حنيفة، فأقبل عليه فقال: يا أبا حنيفة إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمر بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو، أيسعه أن يضرب عنقه؟ فقال: يا أبا العباس أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟ فقال: بالحق، قال: أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه، ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه: إن هذا أراد أن يوثقني فربطته.

وقد أتعبت مَنْ بعدك

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه: لما مات أبي سألنا الحسن ابن عمارة أن يتولى غسله ففعل، فلما غسله قال: رحمك الله وغفر لك! لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد يمينك في الليل منذ أربعين سنة، وقد أتعبت مَنْ بعدك، وفضحت القراء[1].

اكتم عليَّ ما رأيت

قال يزيد بن الكميت: كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى، فقرأ بنا علي بن الحسين المؤذن ليلة في العشاء الآخرة سورة (إذا زلزلت) وأبو حنيفة

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٥، ص: ٤١١-٤١٣).

خلفه، فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فلما خرجت تركت القناديل ولم يكن فيه إلا زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم وقد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيرًا، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شرًا أجِرِ النعمان عبدك من النار، ومما يقرب منها من السوء وأدخله في سعة رحمتك، قال: فأذنت وإذا القناديل تزهر وهو قائم، فلما دخلت قال لي: تريد أن تأخذ القناديل، قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، فقال: اكتم عليَّ ما رأيت، وركع ركعتين وجلس حتى أقمت الصلاة وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل.

ما يعاب على أبي حنيفة

ومناقب الإمام أبي حنيفة وفضائله كثيرة ولم يكن يعاب بشيء سوى قلة العربية، فمن ذلك ما ذكر أن أبا عمرو بن العلاء المقري النحوي سأله عن القتل بالمثل: هل يوجب القود أم لا؟ فقال: لا، كما هو قاعدة مذهبه خلافًا للإمام الشافعي رضي الله عنه فقال له أبو عمرو: ولو قتله بحجر المنجنيق فقال: ولو قتله بأبا قبيس، يعني: الجبل المطل على مكة حرسها الله تعالى، وقد اعتذروا عن أبي حنيفة بأنه قال ذلك على لغة من يقول: إن الكلمات الست المعربة بالحروف - وهي أبوه وأخوه وحموه وهنوه وفوه وذو مال - أن إعرابها يكون في الأحوال الثلاث بالألف وأنشدوا في ذلك:

إن أباها وأبا أباها ... قد بلغا في المجد غايتاها

وهل لغة الكوفيين، وأبو حنيفة من أهل الكوفة، فهي لغته، والله أعلم، وهذا وإن كان خروجًا عن المقصود لكن الكلام ارتبط بعضه ببعض فانتشر[1].

---

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٥، ص: ٤١٣).

فتصدق بالثمن كله!

وكان أبو حنيفة أمينًا في تجارته لا يخدع مشتريًا ولا يشتط في أخذ الربح، ويذكر للمشتري ما في السلعة من عيب إذا كان فيها، ويروى أنه وكل إلى شريكه «حفص» أن يبيع ثيابًا فيها عيوب وأن يذكرها لمن يشتريها ولكن الشريك نسي ذلك، وحاول أبو حنيفة أن يعرف المشتري فلم يهتدِ إليه، فتصدق بالثمن كله!

جمع كلوب

ويُروى أنه لما بدأ يتعلم النحو وهو في أصله قواعد مضبوطة وأقوال مسموعة ولا مجال فيها لتصرف العقل أو تعدد الرأي، ولكن أبا حنيفة رجل يحب أن يستخدم عقله ورأيه، فأراد بمقتضى هذا أن يجمع كلمة «كلب» على «كلوب» كما تجمع كلمة «قلب» على «قلوب»، فقالوا: لابد أن يكون جمع «كلب» على «كلاب» فضاق ذرعًا بهذا الحجر وترك النحو الذي لا قياس فيه إلى تعلم الفقه الذي فيه قياس يرضي عقله وذكاءه.

إلى من تختلف؟

ويُروى أن سبب انصرافه إلى العلم أنه مر يومًا على الإمام الشعبي فدعاه إلى الجلوس وقال له: إلى من تختلف؟ يعني: إلى أي العلماء تذهب لتتعلم منه؟ فقال أبو حنيفة: أختلف إلى السوق، فقال الشعبي: لم أعنِ الاختلاف إلى السوق عنيت الاختلاف إلى العلماء، فأجاب أبو حنيفة: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال له: لا تفعل، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظة وحركة! ووقعت كلمة الشعبي في نفس أبي حنيفة، وأخذ يضرب بسهمه الوافر في العلم، فنفعه الله عزَّ وجلَّ بكلام الشعبي![1].

---

(١) د/ أحمد الشرباصي «الأئمة الأربعة» (ص: ٢٠).

استوثقت لنفسك!

زار أبو حنيفة أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي، وكان عنده عيسى بن موسى فقال عيسى للمنصور عن أبي حنيفة: هذا عالم الدنيا اليوم.. فسأل المنصور أبا حنيفة: يا نعمان، عمن أخذت العلم؟ قال: عن أصحاب عبد الله بن عباس عن عبد الله وما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه وعن أصحاب عمر عن عمر وعن أصحاب علي عن علي، فقال المنصور معجبًا: استوثقت لنفسك؟!

بخ بخ

وفي رواية أخرى أنه قال للمنصور عن أخذه الفقه: «عن إبراهيم عن عمر ابن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، فقال المنصور: بخ بخ، استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة الطيبين الطاهرين المباركين، صلوات الله عليهم.

له أستاذ جليل!

ولقد قال أبو حنيفة: كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله ولزمت فقيهًا من فقهائهم، وهو يقصد أنه عاش في بيئة علمية تموج بالعلم والفقه وتعمر بالبحث والنظر، ومن حوله أهل العلم يجالسهم ويباحثهم وله أستاذ جليل هو حماد بن أبي سلمة!

قصة الإمام أبي حنيفة مع علم الكلام

كان أبو حنيفة يتعلم علم الكلام ويجلس على مقربة من حماد وأقبلت امرأة ذات يوم على أبي حنيفة تسأله عن مسألة فلم يعرف جوابها، فأحالها إلى حماد ورجاها أن تعود إليه بعد ذلك لتخبره بجواب حماد فمضت المرأة إليه وسمعت جوابه، وعادت فأخبرت أبا حنيفة فأعجب به وقال: لا حاجة لي بعلم الكلام وتحول إلى مجلس حماد يسمع منه ويحفظ أقواله ويعيدها ببراعة، فأعجب به حماد وقال لمن حوله: لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة، وظل أبو حنيفة يلازمه حتى مات حماد[1].

واحتاج إليه الأمراء

وبعد موت حماد جلس الناس إلى ابن له يسمعون منه، راجين أن يتصل جهده بجهد أبيه العظيم فيدوم ذكره، ولكن الابن لم يصبر على مجلس الفقه إذ كان يغلب عليه صب النحو، فتقدم الناس إلى أبي حنيفة يطلبون منه أن يجلس لهم وكثر الساعون إليه في ذلك ومنهم أبو يوسف القاضي وزفر بن الهذيل وقبل أبو حنيفة، وظل نجمه يسطع ويتألق حتى ذكره الخلفاء واحتاج إليه الأمراء.

قصة وفاء الإمام أبي حنيفة لأستاذه

ولم يسهل على أبي حنيفة أبدًا أن ينسى شيخه وأستاذه حمادًا فأقام على شرعه الوفاء له يذكره بالخير ويثني على فضله وينوه بأثره فيه ويدعو له

(١) «الأئمة الأربعة» (ص: ٢٢-٤٣).

حتى قال أبو حنيفة: «ما صليت قط إلا دعوت لشيخي حماد ولكل من تعلمت منه علمًا أو علمته علمًا»، وفي رواية أخرى قال: «ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي وإني لأستغفر لمن تعلمت منه علمًا أو علمته علمًا».

أنتم الأطباء ونحن الصيادلة!!

وقد روي أن الأعمش المحدث أملى على أبي حنيفة طائفة من الأحاديث فوعاها وتفهمها... وبعد حين من الزمن كان أبو حنيفة في مجلس الأعمش وجاء من سأل الأعمش عن طائفة من المسائل فلم يهتد إلى الجواب فيها، فالتفت نحو أبي حنيفة وقال له: ما تقول فيها؟ فسارع أبو حنيفة بذكر أجوبتها فقال الأعمش: من أين لك هذا؟ فقال أبو حنيفة: من الأحاديث التي رويتها عنك، ثم سرد عليه طائفة من الأحاديث بأسانيدها.. فقال الأعمش: حسبك. ما حدثتك به في مائة يوم تحدثني به في ساعة؟ ما علمت أنك تعمل بهذه الأحاديث، يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة!

قصة الإمام أبي حنيفة مع الأثر

أساء بعض الناس الظن بأبي حنيفة حينما رأوه يستخدم العقل والرأي والاستنباط فادعوا عليه أنه يترك العمل بالحديث النبوي، وسببت هذه الدعوى لأبي حنيفة بعض المتاعب ولذلك عني بتفنيدها والرد عليها، فنراه في موطن يقول: عجبًا للناس يقولون إني أفتي بالرأي، ما أفتي إلا بالأثر. والمراد بالأثر هنا هو ما جاء في السنة.

ومع القيـاس

وإذا كان أبو حنيـفة قـد أخذ بالقيـاس أو الاستـحسان والعـرف فليس هذا مجـوزاً أن يتهمـه البعض بأنه يقدم القـياس على الحديث لأنه كـان يخضع أولاً للقرآن والحديث وأقوال الصحـابة وهو الذي يقول: كذب والله وافترى علينا من يقول أننا نقـدم القياس على النص وهل يُحـتاج بعد النص إلى قيـاس؟ ويقول: نحن لا نقيس إلا عند الضرورة القـصوى فإن لم نجد دليلاً قسنا حـينئذ مسكوتًا عنـه لا منطوقًا بـه، ويقول: إنا نأخـذ أولاً بكتـاب الله ثم بالسنة ثم بأقـضيـة الصحابة ونعمل بما يتفقون عليـه فإن اختلفوا قسنا حكمًا على حكم بجامع العلة بين المسألتين، حتى يتضح المعنى.

والحديث النبوي الشريف

وأبو حنيفة يأخذ بالأحاديث المتـواترة والأحاديث المشهورة وأحاديث الآحاد وهو إذا لم يأخـذ بحديث رواه شـخص فإنه لا يـعد نفـسه طاعنًا في الحـديث النبوي، ولكنه يـطعن في ثبوت هذا الحديث عن النبـي ﷺ ويقرر أن الطعن في الراوي أو في الثبوت وليس رفضًا لشيء جاء به النبي ﷺ، لأنه متى ثبت أن الرسول قد قال هذا القول أو فعل هذا الشيء فإنه يكون على الرأس والعين، ويقول: فردِّي على كل رجل يحـدث عن النبي ﷺ بخلاف القرآن، ليس ردًا على النبـي ﷺ ولا تكذيبًا له ولكـنه ردٌ على من يحـدث عـن النبي ﷺ بالباطل والتهمـة دخلت عليه ليس على نبي الله ﷺ، وكذلك كل شيء تكلم به نبي الله ﷺ سمعناه أو لم نسمعه فعلى الرأس والعين قد آمنا به ونشهد أنه كما قال نبي الله ﷺ.

لعن الله من يخالف رسول الله ﷺ

وكان أبو حنيفة يدقق في قبول الأحاديث ويشترط شروطًا لتحقق صحتها، وإذا قيل له حديث في موضوع ولم تتوافر فيه شروط الصحة، توقف وقال: «لم يصح هذا عندي عن رسول الله ﷺ فأفتي به»، فإذا أساء أحد فهم هذا وقال لأبي حنيفة: أتخالف النبي ﷺ؟ سارع بالرد قائلاً في حزم وعزم: لعن الله من يخالف رسول الله ﷺ به أكرمنا الله وبه استنقذنا!.

فهو أولى بالصواب منا

ومع سعة علم الإمام أبي حنيفة ودقة الفهم منه، كان يتواضع للعلم ولا يغتر برأيه ولا يحمل الناس عليه بل يقول: «قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا».

وكأن على رؤوسنا الطير

ولم يكن للإمام أبي حنيفة شغف بالمجادلة أو المماراة، ولذلك نهى ابنه حمادًا عن الجدل والمناظرة في علم الكلام والعقائد فقال له ابنه: رأيناك تناظر فيه وتنهانا عنه؟! فأجاب أبو حنيفة: كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا (أي مناظرنا) وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه!

الكلام معك عار والخوض فيما أنت فيه نار!

ذهب جهم بن صفوان إلى أبي حنيفة وقال له: يا أبا حنيفة أتيتك لأكلمك في أشياء هيأتها لك، فأجابه أبو حنيفة: الكلام معك عار والخوض فيما أنت فيه نار تتلظى! قال جهم: فكيف حكمت عليَّ بما حكمت ولم تسمع كلامي ولم تلقني؟ أجاب أبو حنيفة: بلغني عنك أقاويل لا يقولها أهل الصلاة، قال جهم: أفتحكم عليَّ بالغيب؟ أجاب أبو حنيفة: اشتهر عنك ذلك وظهر عند العامة والخاصة فجاز لي أن أحقق ذلك عليك، قال جهم: لا أسألك عن شيء إلا عن الإيمان، قال أبوحنيفة: أولم تعرف الإيمان إلى الساعة حتى تسألني عنه؟ قال جهم: بلى، ولكن شككت في نوع منه، قال أبو حنيفة: الشك في الإيمان كفر، فردَّ جهم: لا يحل لك إلا أن تبين لي من أي وجه يلحقني الكفر، قال أبو حنيفة: سل، فسأله جهم: أخبرني عمن عرف الله بقلبه وعرف أنه واحد لا شريك له ولا ند، وعرفه بصفاته، وأنه ليس كمثله شيء ثم مات قبل أن يتكلم بلسانه؛ أمؤمنًا مات أم كافرًا؟ وأجاب أبو حنيفة بقوله: كافر من أهل النار حتى يتكلم بلسانه مع ما عرفه بقلبه، فسأله جهم: وكيف لا يكون مؤمنًا وقد عرف الله بصفاته؟ ورد أبو حنيفة: إن كنت تؤمن بالقرآن وتجعله حجة كلمتك به.. وإن كنت لا تؤمن به ولا تجعله حجتك كلمتك بما نكلم به من خالف ملة الإسلام، قال جهم: أؤمن بالقرآن واجعله حجة، قال أبو حنيفة: قد جعل الله تبارك وتعالى الإيمان في كتابه بجارحتين: بالقلب وباللسان فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ٨٣-٨٥)، ما وصلهم إلى الجنة بالمعرفة والقول وجعلهم مؤمنين بالجارحتين: بالقلب واللسان. . . ، وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ (البقرة: ١٣٦-١٣٧)، وقال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ (الفتح: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الحج: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (فاطر: ١٠)، وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، وقال النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[1]، فلم يجعل الفلاح بالمعرفة دون القول. . وقال النبي ﷺ: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه كذا..»[2]، ولم يقل: يخرج من النار من عرف الله وكان في قلبه كذا، ولو كان القول لا يحتاج إليه ويكتفى بالمعرفة لكان من رد الله بلسانه وأنكره بلسانه إذا عرفه بقلبه مؤمنًا، لكان إبليس مؤمنًا لأنه عارف بربه، يعرف أنه خالقه ومميته وباعثه ومغويه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ (الحجر: ٣٩)، وقال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الاعراف: ١٤)، وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، ولكان الكفار مؤمنين بمعرفتهم بربهم إذا أنكروا بلسانهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤)، فلم يجعلهم مع استيقانهم بأن الله واحد مؤمنين مع جحدهم بلسانهم وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل: ٨٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١)، فلم تنفعهم معرفتهم مع إنكارهم،

---

(١) حديث صحيح، راجع «فتح المجيد»، «شرح كتاب التوحيد».

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٤)، ومسلم (٢٧٨).

وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة:١٤٦)، فلم تنفعهم المعرفة مع كتمانهم أمره وجحودهم به! وهنا قال جهم لأبي حنيفة: قد أوقعت في خلدي شيئًا فسأرجع إليك!

كان أبو حنيفة آية

قال عبد الله بن المبارك: كان أبو حنيفة آية! فسأله أحد الأعداء: في الخير أم في الشر؟ فقال: اسكت يا هذا، فإنه يقال: آية في الخير وغاية في الشر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون: ٥٠).

من يعذرني من أبي حنيفة حيًا وميتًا!؟

ويروى أن أبا حنيفة أوصى قبيل موته أن يدفن في أرض طيبة لم يحدث فيها غصب، وألا يدفن في أرض أتهم الأمير بأنه اغتصبها، ولقد بلغت هذه الوصية مسمع أبي جعفر المنصور فقلق لها وقال: من يعذرني من أبي حنيفة حيًا وميتًا!؟

تعظيمًا للقرآن!

وقد روي أن حماد بن أبي حنيفة كان طفلاً صغيرًا فحمله والده على حفظ القرآن، ولما استطاع معلمه أن يجعله يحفظ سورة الفاتحة فرح الإمام بذلك وأرسل إلى معلمه خمسمائة درهم وعجب المعلم وقال: ما صنعت حتى يرسل إليَّ هذا؟ وعلم أبو حنيفة بذلك فأحضره وقال له: لا تستحقر ما علمت ولدي والله لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيمًا للقرآن.

أبو حنيفة وقيام الليل

كان أبو حنيفة في تهجده يطيب له أن يكرر الآية من القرآن الكريم عشرات المرات، يديرها على لسانه، ويديرها في الوقت نفسه على عقله وقلبه فهو يرددها، وهو يفكر فيها، وهو يتأثر بها وكلما كررها تجدد له إدراك، وتجدد له انفعال، ولقد روي عنه أنه كرر في تهجده ذات ليلة الآية الكريمة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (الطور: ٢٧)، وظل يرددها في صلاته حتى طلع الفجر.

إنما ناضلت عن ديني

وكان أبو حنيفة ورعًا شديد الخشية من الله تعالى، أبيًا مترفعًا، لا يقبل أن يأكل دنياه بدينه، ولقد حدث نزاع بين الخليفة المنصور وزوجته، فاحتكما إلى أبي حنيفة، وكان الحق في جانب الزوجة، فدافع عنه أبو حنيفة، وخالف رأي الخليفة، فلما حكم بينهما وانصرف بعثت إليه زوجة المنصور بهدايا، فردها إليها وقال لرسولها: اقرئها السلام، وقل لها: إنما ناضلت عن ديني وقمت ذلك المقام لله . . . ولم أرد بذلك تقربًا إلى أحد، ولا التمست به دنيا.

هكذا قيل والعهدة على الرواة!!

وقيل أن أبا حنيفة ترك أكل لحم الغنم، لما فقدت شاة من الكوفة إلى أن علم موتها، لأنه سأل عن أكثر ما تعيش فقيل له: سبع سنين، فترك أكل لحم الغنم سبع سنين تورعًا منه، لاحتمال أن تبقى هذه الشاة الحرام، فيصادف أكل شيء منها، وإن كان الإثم هنا منتفيًا للجهل بعين الشيء الحرام، هكذا قيل، والعهدة على الرواة!!

يا له من ورع

ومن قبيل ورع أبي حنيفة البالغ ما رواه عبد الله بن المبارك من أن أبا حنيفة أراد شراء أمة «جارية» فمكث عشرين سنة يستخير ويشاور من أي سبي يشتري![1].

يا أبا حنيفة لو تحولت إلى الظل؟!

ويبالغ أبو حنيفة أحيانًا في ورعه إلى درجة مثالية وقد يدل على ذلك أن يزيد بن هارون رأى أبا حنيفة جالسًا يومًا في الشمس بالقرب من بيت إنسان فقال له: يا أبا حنيفة لو تحولت إلى الظل؟ وهو يقصد ظل البيت الجالس أمامه، فقال أبو حنيفة: لي على صاحب هذه الدار دراهم ولا أحب أن أجلس في ظل داره، وفي رواية أنه قال: لي على صاحب هذه الدار شيء فكرهت أن أستظل بظل حائطه فيكون ذلك جر منفعة، وما أرى ذلك على الناس واجبًا ولكن العالم يحتاج أن يأخذ لنفسه من علمه بأكثر مما يدعو الخلق إليه، وعلق يزيد على هذه الحادثة بقوله: ما رأيت أورع من أبي حينفة، فأي ورع أكثر من هذا؟!

قصة أبي حنيفة مع المرأة العجوز

وكان أبو حنيفة صدوقًا في تجارته، لا يغش ولا يخادع ولا يشتط في الربح بل ينتهز فرص البيع ليؤدي ألوانًا من الخير إلى مستحقيه، ومن أمثلة ذلك أن امرأة جاءته تشتري منه ثوبًا وتقول له: إني ضعيفة وإنها أمانة فبعني هذا الثوب

(١) «الأئمة الأربعة» (ص: ٦٥).

بما يقوم عليك (أي بأصل ثمنه) فقال لها: خذيه بأربعة دراهم، وكان واضحًا أن الثوب في تقدير السوق يساوي أكثر من ذلك فقالت له: لا تسخر بي وأنا عجوز، فأكد لها أنه لم يسخر بها وقال: إني اشتريت ثوبين معًا، فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم!

ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل

وكان صلبًا في الحق ثابتًا عليه، ولعل موقفه في الإصرار على رفض القضاء، وتعرضه بسبب ذلك للسجن والأذى أقوى شاهد على ذلك الثبات، ولقد قال وكيع: كان أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان الله في قلبه جليلاً كبيراً عظيمًا، وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء، ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل![1].

ولولا أخاف أن أحتاج إلى هؤلاء

كان أبو حنيفة لا يبقى عنده أكثر من أربعة آلاف درهم ويبذل الباقي، ولقد روى وكيع أن أبا حنيفة قال له: ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أربعين سنة إلا أخرجته ـ أي أخرجت الأكثر الزائد على ذلك ـ وإنما بلغ غاية ما يمسك أربعة آلاف لقول علي رضي الله عنه: أربعة آلاف ودونها نفقة، وكان أبو حنيفة يضيف إلى ذلك قوله: «ولولا أني أخاف أن أحتاج إلى هؤلاء لما أمسكت منها درهمًا واحدًا».

(١) «الأئمة الأربعة» (ص: ٦٤).

أتدرون من هذا؟!

دخل أبو حنيفة ذات مرة على الإمام مالك بن أنس فوقَّره، ولما خرج أبو حنيفة قال مالك لمن معه: أتدرون من هذا؟! قالوا: لا، قال: هذا النعمان، لو قال هذه الأسطوانة من ذهب لخرجت كما قال!

اللهم من ضاق بنا صدره

ومن صفات أبي حنيفة ضبط النفس مع الوقار والحلم فهو الذي كان يقول: اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له، ولقد سبه أحد الناس بقوله: يا مبتدع يا زنديق! فرد عليه بقوله: غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك وإني ما أشركت به مذ عرفته ولا أرجو إلا عفوه ولا أخاف إلا عقابه.

نفض الحية وجلس مكانه!

ولقد روى النووي عن ابن المبارك قوله: ما كان أوقر من مجلس أبي حنيفة، ويقص علينا أن أبا حنيفة كان في مجلسه بالجامع فوقعت حية فسقطت في حجره، فخاف الناس وهربوا، ولكنه ما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه!

لعله الباطل الذي لا شك فيه

وكان رغم ألمعيته ونبوغه وشهرته لا يغتر برأيه ولا يتعصب بفكرته ولا يغالي في معرفته قدر نفسه، فهو يقول عن استنباطه: قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب، وقيل

له: يا أبا حنيفة هذا الذي تفتي به هو الحق الـذي لا شك فيه؟ فأجاب: والله لا أدري لعله الباطل الذي لا شك فيه...!

لا تكتب كل ما تسمعه مني

وقد عود أبو حنيفة تلميذه أبا يوسف القاضي على التثبت وعدم الاستسلام أو المتابعة له بلا تمحيص، وقال له: لا تكتب كل ما تسمعه مني (أي متعجلاً فيه مستسلمًا له) فإني قد أرى الرأي اليوم فأتركه غدًا وأرى الرأي غدًا فأتركه بعد غد!

قد أحسنتن!

ومن الأمثلة الدالة على حسن تخلصه بفرط ذكائه ما يروى أنه كان يسير يومًا مع محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة ولعله كان بينهما تنافس المتعاصرين، ومرا ببستان فيه مغنيات يغنين فلما حاذيا المغنيات سكتن فقال لهن أبو حنيفة: قد أحسنتن!

وبعد حين شهد أبو حنيفة عند أبي ليلى في قضية فقال لأبي حنيفة: شهادتك ساقطة، فقال: ولِمَ؟ قال: لقولك للمغنيات: أحسنتن؛ لأن هذا رضى منك بمعاصي الله تعالى، فسأله أبو حنيفة: متى قلت لهن: أحسنتن حين غنين أم حين سكتن؟! فقال ابن أبي ليلى: حين سكتن، فقال أبو حنيفة: الله أكبر إنما أردت بقولي: أحسنتن في السكوت لا في الغناء! فلم يسع ابن أبي ليلى إلا أن يقبل شهادته، وحينئذ تلا أبو حنيفة قول الله تعالى: ﴿ولا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر:٤٣)، وصار ابن أبي ليلى يحذر أبا حنيفة بعد ذلك!

قصة أبي حنيفة مع الخارجي

جاء رجل من الخوارج إلى أبي حنيفة وقال له: تب، فسأله أبو حنيفة: مم أتوب؟ قال الخارجي: من قولك بتجويز الحكمين (يعني الحكمين اللذين كانا يحكمان في الخلاف بين علي ومعاوية) فقال له أبو حنيفة: ألا تقبل أن تناظرني في هذا الموضوع؟ فقبل الخارجي، وهنا قال له الإمام: فإن اختلفنا في شيء مما تناظرنا فيه، فمن يحكم بيننا؟ فرد عليه الخارجي قائلاً: اجعل أنت من شئت، وكان مع الخارجي صاحب له، فالتفت أبو حنيفة إلى هذا الصاحب وقال له: اقعد فاحكم بيننا فيما نختلف فيه إن اختلفنا، وسُر الخارجي بذلك، ثم قال أبو حنيفة له: أترضى بهذا حكمًا بيني وبينك؟ قال: نعم، فقال أبو حنيفة له: فأنت جوزت التحكيم! فبهت الخارجي ولم يَحُرْ جوابًا!

أخطأ في سبعة مواضع

ومن شواهد ذكائه وتوقد ذهنه مع سعة معرفته أن امرأة معتوهة تعرضت لإيذاء رجل فقالت له: يا ابن الزانيين، وذهبوا بها إلى قاضي الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى فاعترفت بالقذف فأقام عليها الحدَّين[1] في المسجد وبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: أخطأ في سبعة مواضع: بني الحكم على إقرار المعتوهة وإقرارها هدر، وألزمها الحد والمعتوهة ليست من أهل العقوبة، وأقام عليها حدين ومن قذف جماعة لا يقام عليه إلا حد واحد وأقام حدين معًا، ومن اجتمع عليه حدان لا يوالي بينهما ولكن يضرب أحدهما ثم يترك حتى يبرأ

(١) فعل ذلك ظنًا منه أنها تستحق حدين، لأنها قذفت شخصين هما والدا الرجل لا شخصًا واحدًا.

ثم يقام الآخر، وأقام الحد في المسجد وليس للإمام أن يقيم الحد في المسجد وضربها قائمة وإنما تضرب المرأة قاعدة وضربها بغير حضرة وليها وإنما يقام الحد على المرأة بحضرة وليها حتى إذا انكشف شيء من بدنها في اضطرابها ستر الولي ذلك عليها.

خضعوا وألقوا السلاح

وقد هيأ لأبي حنيفة الذكاء أن يكون بارعًا في الجدال والمناظرة ولذلك نراه يجتمع بطائفة من الخوارج الذين يقولون أن مرتكب الذنب كافر وتجري بينهم هذه المحاورة: قالوا له: هاتان جنازتان على باب المسجد أما إحداهما جنازة رجل شرب الخمر حتى ملأته وحشرج بها فمات والأخرى امرأة زنت حتى إذا أيقنت بالحمل قتلت نفسها! وطلبوا منه رأيه فيهما، فسألهم أبو حنيفة: من أي الملل كانا؟ من اليهود؟ قالوا: لا، قال: أفمن النصارى؟ قالوا: لا، قال: أفمن المجوس؟ قالوا: لا، قال: من أي الملل كانا؟ قالوا: من الملة التي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، قال: فأخبروني عن الشهادة: أهي من الإيمان ثلث أو ربع أو خمس؟ قالوا: إن الإيمان لا يكون ثلثًا ولا ربعًا ولا خمسًا، قال: فكم هي من الإيمان؟ قالوا: الإيمان كله! قال: فما سؤالكم إياي عن قوم زعمتم وأقررتم أنهما كانا مؤمنين؟ قالوا: دع عنك، أمن أهل الجنة هما أم أهل النار؟ قال: أما إذا أبيتم فإني أقول فيهما ما قاله نبي الله إبراهيم في قوم كانوا أعظم جرمًا منهما: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٣٦)، وأقول فيهما ما قاله نبي الله عيسى في قوم كانوا أعظم جرمًا منهما: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨)، وأقول

فيهما ما قاله نبي الله نوح إذ قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء: ١١١)، قال: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١١٢-١١٤)، وأقول ما قال نوح عليه السلام: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٣١)، ولما سمع الخوارج هذا من الإمام خضعوا وألقوا السلاح!

قصة الإمام أبي حنيفة مع الملاحدة

يروى أن بعض الملاحدة الذين ينكرون وجود الخالق جلَّ جلاله التقوا به فقال لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة مملوءة بالأمتعة والأحمال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس فيها ملاح يجريها أو يقودها، ولا متعهد يدفعها أو يسوقها، هل يجوز ذلك في العقل؟ فقالوا: لا، فهذا شيء لا يقبله العقل ولا يجيزه الوهم، فقال أبو حنيفة: فيا سبحان الله إذا لم يجز في العقل وجود سفينة مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وتغير أحوالها وأمورها وأعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ومحدث لها؟!

حتى لا يغتم بك صديقك

وبلغ من حرص أبي حنيفة على إصلاح هيئته وثيابه أنه كان يحث غيره على مثل هذا، ويبالغ في حثه وحرصه، ولقد رأى ذات يوم أحد جلسائه في ثياب رثة فانفرد به وقدم إليه ألف درهم ليصلح بها هيئته، فقال له الرجل:

إني موسر، وأنا في نعمة، ولا أحتاج إليها، فقال له أبو حنيفة معاتبًا: أما بلغك الحديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»؟[1]، فينبغي أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك![2].

قصة الإمام أبي حنيفة مع الإمام الأوزاعي

كان الإمام الأوزاعي معاصرًا لأبي حنيفة وبلغه عنه ما يكره فلما التقى فقيه الشام الإمام الأوزاعي بعبد الله بن المبارك قال له: من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة ويكنى أبا حنيفة؟ فلم يجب ابن المبارك على سؤاله مباشرة ـ وكان يحب أبا حنيفة ـ بل أخذ يعرض مسائل عويصة في الفقه، ويعرض فيها فتاوى يعجب بها الأوزاعي حتى يسأل قائلاً: من صاحب هذه الفتاوى؟ فيجيبه ابن المبارك: شيخ لقيته بالعراق.

فيقول الأوزاعي عنه: هذا نبيل من المشايخ، اذهب فاستكثر منه، فقال له ابن المبارك: هذا أبو حنيفة! وهيأت الأقدار بعد هذا اجتماع الأوزاعي بأبي حنيفة، واطلع الأوزاعي على فقه الإمام وعلمه، فقال الأوزاعي لابن المبارك فيما بعد: «غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى، لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل، فإنه بخلاف ما بلغني عنه»!!.

قصة الإمام أبي حنيفة مع الإمام الثوري

ومما يدل على إجلال السلف لأبي حنيفة أنه لما مات أخو سفيان الثوري جاء الناس يعزونه وجاء أبو حنيفة فيمن جاء فقام إليه سفيان وأكرمه وأقعده مكانه،

---

(١) «الأئمة الأربعة» (ص: ٥٨-٥٩).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وانظر «صحيح الترمذي» للعلامة الألباني ـ رحمه الله ـ (٢٢٦٠).

وقعد بين يديه، فلما تفرق الناس قال أصحاب سفيان له: رأيناك فعلت شيئًا عجيبًا مع هذا الرجل، فقال: هذا رجل من العلم بمكان فإن لم أقم لعلمه قمت لسنِّه، وإن لم أقم لسنه قمت لفقهه، وإن لم أقم لفقهه قمت لورعه!

درة

قال الإمام أبو حنيفة: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

وصية الإمام أبي حنيفة عن معاملة السلطان

قال أبو حنيفة لتلميذه أبي يوسف: يا يعقوب وقر السلطان وعظم منزلته وإياك والكذب بين يديه، ولا تدخل عليه في كل وقت وفي كل حال، ما لم يدعك لحاجة علمية فإنك إن أكثرت الاختلاف إليه تهاون واستخف بك، وصغرت منزلتك في عينه، فكن منه كما أنت من النار، تنتفع بها وتتباعد عنها ولا تدن منها، فإنك تحترق وتتأذى منها، فإن السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه وإياك وكثرة الكلام بين يديه، فإنه يأخذ عليك ما تفوه به ليرى من نفسه بين يدي حاشيته أنه أعلم منك وأنه يخطئك فتصغر بذلك في أعين قومه، ولتكن إذا دخلت عليه تعرف قدرك وقدر غيرك.

مع العامة

ولا تتكلم بين يدي العامة إلا بما تسأل عنه، وإياك والكلام في المعاملة والتجارة إلا بما يرجع إلى العلم كي لا يوقف منك على رغبة في الحال فإنهم يسيئون الظن بك، ويعتقدون ميلك إلى أخذ الرشوة منهم وبسط اليد إليها.

وفي الكلام

ولا تضحك ولا تبتسم فيما بين العامة، ولا تكثر الخروج إلى الأسواق، ولا تكلم الصبيان المراهقين فإنهم فتنة، ولا بأس أن تكلم الأطفال وتمسح رؤوسهم، ولا تمش في قارعة الطريق مع المشايخ من العامة فإنك إن قدمتهم أزرى ذلك بعلمك، وإن أخرتهم ازدرى بك من حيث أنهم أسن منك، فإن النبي ﷺ قال: «**من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا فليس منا**»[1].

والجلوس واللباس

ولا تقعد على قوارع الطريق، وإذا دعاك ذلك فاقعد في المسجد، ولا تقعد في الحوانيت، ولا تأكل في الأسواق والمساجد، ولا تشرب من السقايات ومن أيدي السقايين، ولا تلبس الديباج والحلي وأنواع الإبريسم فإن ذلك يفضي إلى الرعونة.

ومع الأهل

ولا تكثر الكلام في بيتك مع أهلك في الفراش إلا في وقت حاجتك إليها بقدر ذلك، ولا تكثر لمسها ومسها، ولا تتقرب بها إلا أن تذكر الله تعالى وتستخير فيه، ولا تتكلم بأمر نساء الغير بين يديها ولا بأمر الجواري فإنها تنبسط إليك في كلامك، ولعلك إذا تكلمت عن غيرها تكلمت عن الرجال الأجانب.

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»، وقال: حديث حسن صحيح، وفي رواية لأبي داود: «**حق كبيرنا**»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٥٦٦)، «صحيح أبي داود» (٤١٣٤)، و«صحيح الجامع» (٥٤٤٤).

وفي الزواج

ولا تتزوج امرأة كان لها بعل أو أب أو أم أو بنت إن قدرت إلا بشرط أن لا يدخل عليها أحد من أقاربها، فإن المرأة إذا كانت ذات مال يدعى أبوها أن جميع مالها له، وأنه عارية في يدها، ولا تدخل بيت أبويها ما قدرت، وإياك أن ترضى أن تزف في بيتهم، فإنهم يأخذون أموالك ويطمعون فيك غاية الطمع، وإياك أن تتزوج بذات البنين والبنات فإنها تدخر جميع المال لهم، وتسرق من مالك وتنفق عليهم، فإن الولد أعز عليهم منك، ولا تجمع بين امرأتين في دار واحدة.

وفي العلم

ولا تتزوج إلا بعد أن تعلم أنك تقدر على القيام بجميع حوائجها، واطلب العلم أولاً ثم اجمع المال من الحلال ثم تزوج، فإنك إذا اشتغلت بطلب المال في وقت التعلم عجزت عن طلب العلم، ودعاك المال إلى شراء الجواري والغلمان وتشتغل بالدنيا، وإياك أن تشتغل بالنساء قبل تحصيل العلم فيضيع وقتك ويجتمع عليك الولد ويكثر عيالك فتحتاج إلى القيام بحوائجهم وتترك العلم، واشتغل بالعلم في عنفوان شبابك ووقت فراغ قلبك وخاطرك ثم اشتغل بالمال ليجتمع عندك فإن كثرة المال والعيال تشوش البال، فإن جمعت المال فاشتغل بالتزوج.

وفي التقوى

وعليك بتقوى الله وأداء الأمانة والنصيحة لجميع الخاصة والعامة، ولا تستخف بالناس ووقرهم، ولا تكثر معاشرتهم إلا بعد أن يعاشروك، وقابل

معاشرتهم بذكر المسائل العلمية فإنه إن كان من تعاشره من أهله اشتغل بالعلم وإن لم يكن من أهله اجتنبك.

وفي أصول الدين

وإياك وأن تكلم العامة في أصول الدين والكلام فإنهم قوم يقلدونك فيشتغلون بذلك، ومن جاء يستفتيك في المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله، ولا تضم إليه غيره فإنه يتشوش عليه جواب سؤاله.

وفي المعيشة

وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم فإنك إذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكًا على ما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٤).

وفي العبادات

ولا ترض لنفسك من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك ويتعاطاها فإن العامة إذا لم يرو منك الإقبال عليها بأكثر مما يفعلونها اعتقدوا فيك السوء وقلة الرغبة فيها، واعتقدوا أن علمك لا ينفعك إلا ما نفعهم الجهل الذي هم فيه.

وفي بلدة أهل العلم

وإذا دخلت بلدة فيها أهل العلم فلا تتخذها لنفسك، بل كن كواحد من أهلها ليعلموا أنك لا تقصد جاههم وإلا يخرجون عليك بأجمعهم، ويطعنون

في مذهبك والعامة يخرجون عليك وينظرون إليك بأعينهم فتصير مطعونًا عندهم فلا فائدة.

ومع الله

وكن لله تعالى في سرك كما أنت له في علانيتك، ولا يصلح أمر العالم إلا بأن يجعل سره كعلانيته.

وفي المعاملة

وإياك أن تكثر الضحك؛ فإنه يميت القلب، ولا تكثر محادثة النساء ومجالستهن؛ فإنه يميت القلب أيضًا، ولا تمشِ إلا على الطمأنينة والسكون، ولا تكن عجولاً في الأمور، ومن دعاك من خلفك فلا تجبه فإن البهائم تنادي من خلف! وإذا تكلمت فلا تكثر صياحك ولا ترفع صوتك، واتخذ لنفسك السكون وقلة الحركة عادة، كي يتحقق عند الناس ثباتك.

وذكر الله

وأكثر ذكر الله تعالى فيما بين الناس ليتعلموا ذلك منك، واتخذ لنفسك وردًا خلف الصلوات تقرأ فيه القرآن وتذكر الله تعالى وتشكره على ما أودعك من الصبر، وما أولاك من النعم، واتخذ لنفسك أيامًا معدودة من كل شهر تصوم فيها ليقتدي غيرك بك في ذلك، ولا ترضى لنفسك من العبادات بما ترضى به العامة.

وفي المراقبة

ـــ ❋ ـــ

وراقب نفسك وحافظ على العلم لتنتفع في دنياك وأخراك بعلمك ولا تشتر بنفسك ولا تبع، بل اتخذ لك غلامًا مصلحًا يقوم بأشغالك، وتعتمد عليه في أمورك.

ومع الدنيا

ـــ ❋ ـــ

ولا تطمئن إلى دنياك وإلى ما أنت فيه فإن الله تعالى سائلك عن جميع ذلك، ولا تشتر الغلمان المرد، ولا تظهر من نفسك التقرب إلى السلاطين وإن قربوك فإنهم يرفعون إليك الحوائج، فإن قمت بها أهانوك وإن لم تقم بها عابوك.

ومع أشرار الناس

ـــ ❋ ـــ

ولا تتبع الناس في خطاياهم بل اتبعهم في صوابهم، وإذا عرفت إنسانًا بالشر فلا تذكره به، بل اطلب له خيرًا فاذكره به، إلا في باب الدين فإنك إن عرفت في دينه ذلك فاذكره للناس كي لا يتبعوه وليحذروه، قال ﷺ: **«اذكروا الفاجر بما فيه حتى يحذره الناس»**[1]، وإن كان ذا جاه ومنزلة الذي ترى منه الخلل في الدين فاذكر ذلك ولا تبال من جاهه، فإن الله تعالى معينك وناصرك وناصر الدين، فإذا فعلت ذلك مرة هابوك ولم يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدين.

---

(١) بنحوه هذا ما ذكره الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في جواز غيبة أهل الفساد وأهل الرِّيب وهو قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه من حديث عائشة أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: **«ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»**.

وذكر الموت

واذكر الموت، واستغفر لأساتذتك ومن أخذت عنهم العلم، وداوم على تلاوة القرآن، وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والأماكن المباركة، واقبل من العامة ما يعرضون عليك من رؤياهم في النبي ﷺ وفي رؤيا الصالحين في المساجد والمنازل المباركة والمقابر.

وفي الصلاة

وإذا أذن المؤذن فتأهب لدخول المسجد كي لا يتقدم عليك العامة، ولا تتخذ دارك في جوار السلطان، وما رأيت على جارك فاستره عليه، فإنه أمانة عندك، ولا تظهر أسرار الناس، ومن استشارك في شيء فأشر عليه بما تعلم أنه يقربك إلى الله تعالى.

ومع أهل البصرة

إذا دخلت البصرة واستقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك فأنزل كل رجل منزلته، وأكرم أهل الشرف، وعظم أهل العلم، ووقر الشيوخ، ولاطف الأحداث، وتقرب من العامة، ودارِ الفجار، واصحب الأخيار، ولا تتهاون بسلطان، ولا تحقرن أحدًا، ولا تقصر في مروءتك، ولا تخرجن سرك إلى أحد، ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه، ولا تخادن خسيسًا ولا وضيعًا، ولا تألف ما ينكر عليك في ظاهره، وإياك والانبساط إلى السفهاء.

وفي المداراة

عليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر، واستجد ثياب كسوتك، وتخير دابتك، وأكثر استعمال الطيب.

وفي بذل الطعام

وابذل طعامك؛ فإنه ما ساد بخيل قط، ولتكن لك بطانة تعرفك أخبار الناس؛ فمتى عرفت بفساد بادرت إلى صلاح، ومتى عرفت بصلاح ازددت فيه رغبة وعناية.

وفي الزيارة

واعمل في زيارة من يزورك ومن لا يزورك، والإحسان إلى من يحسن إليك أو يسيء، وخذ العفو وأمر بالعرف، وتغافل عما لا يعنيك، واترك كل ما يؤذيك، وبادر في إقامة الحقوق، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك، ومن غاب منهم افتقدت أحواله، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه.

وفي مجالس العلم

وأظهر تودداً للناس ما استطعت، وافش السلام ولو على قوم لئام، ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس أو ضحك وإياهم أو مسجد وجرت المسائل

وخاضوا فيها بخلاف ما عندك، لم تبد لهم؛ فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول: فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك، فإن قالوا: هذا قول من؟ قل: بعض الفقهاء، وإذا استمروا على ذلك وألفوك عرفوا مقدارك وعظموا محلك.

وفي البخل

وإياك والبخل فإنه يفتضح به المرء ولا تك طماعًا ولا كذابًا ولا صاحب تخاليط، بل احفظ مروءتك في الأمور كلها، والبس من الثياب البيض في الأحوال كلها وكن غني القلب، مظهراً من نفسك قلة الحرص والرغبة في الدنيا، وأظهر من نفسك الغنى ولا تظهر الفقر وإن كنت فقيراً، وكن ذا همة؛ فإن من ضعفت همته ضعفت منزلته.

وفي الطريق

وإذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمينًا وشمالاً بل داوم النظر إلى الأرض، وإذا دخلت الحمام فلا تساوِ الناس في أجرة الحمام والمجلس بل أرجح على ما تعطي العامة لتظهر مروءتك بينهم فيعظموك.

وفي تحقير الدنيا

وحقر الدنيا المحقرة عند أهل العلم، فإن ما عندك خير منها وول أمورك غيرك ليمكنك الإقبال على العلم فذلك أحفظ لجاهك.

ومع المجانين

وإياك وأن تكلم المجانين ومن لا يعرف المناظرة والحجة من أهل العلم والذين يطلبون الجاه ويتسوقون بذكر المسائل فيما بين الناس؛ فإنهم يقصدون تخجيلك ولا يبالون منك وإن عرفوك على الحق.

ومع علية القوم

وإذا دخلت على قوم كبار فلا تترفع عليهم ما لم يرفعوك لئلا يلحق بك منهم أذية، وإذا كنت في قوم فلا تتقدم عليهم في الصلاة ما لم يقدموك على وجه التعظيم.

ومع مظالم السلاطين

ولا تحضر مظالم السلاطين، إلا إذا عرفت أنك إذا قلت شيئًا ينزلون على قولك في الحق، فإنهم إن فعلوا ما لا يحل وأنت عندهم ربما لا تملك منعهم ويظن الناس أن ذلك حق لسكوتك فيما بينهم وقت الإقدام عليه[1].

(١) «الأئمة الأربعة» (ص: ٤٨) وما بعدها.